الأبحاث

بقلم موريس صقر

نشرت « الاداب » في عددها الاخير اربعة ابحاث تتناول مواضيع مختلفة ، ولكنها تلتقي فيما بينها في معالجة الشيوعية من نواح خاصة احيانا ، وعامة احيانا اخرى .

وهذه الابحاث هي : « معركة العرب معركة الانسانية » للدكتور عبدالله عبدالدائم ، والدراسة النقدية التي خصتها الشاعرة نازك الملائكة بمسرحية جان بول سارتر « الابدي القذرة » ، ومقال السيد ايليا حريق عن « المادية الديالكتية ونظرتها الى التاريخ » وتحليل كتاب أرثر كستلر « ظلام في النهار » بقلم السيد محمد حيدر .

ابحاث اربعة يشكل كل واحد منها قطعة قائمة بذاتها ، لها محورها ومدارها ومضاعفاتها الخفية ، ولكن عندما ننظر اليها جملة تبدو لنا كانها تكمل بعضها بعضا من حيث الاضواء التي تلقيها على المسالة الكبرى التي يواجهها العالم منذ اكثر من قرن والتي بدأت تقض مضاجع العرب منذ انتفاضة العراق في ١٤ تموز ، اعني بها المسالة الشيوعية .

معركة العرب معركة الانسانية

محور بحث الدكتور عبدالله عبدالدائم هو القومية العربية . انه يضع هذه القومية على قدميها بعد ان يحلل معطياتها الحديثة تحليلا جوهريا فتتجلى فارعة القوام ، متماسكة الاعضاء متينة البنية مشرقة الوجه ، ثم يضع السياسة الغربية والسياسة السوفياتية على محك هذه القومية ليظهر ما فيهما من دجل ومكر وزيف .

يقول الدكتور عبد الدائم في مطلع بحثه ان ما يميز الامة العربية اليوم عما كانت عليه في الماضي هو انها بدأت منذ سنوات تعي وجودها وعيا نضاليا بعد ان ظلت فترة طويلة من الزمن هاجعة ، فاقدة الوجدان .

ولم يعلل اسباب هذه اليقظة بل اكتفى بالاشارة الى انها جاءت نتيجة نضال العرب وكفاحهم الطويل وتحاكهم مع العالم الاجنبي.

كان باستطاعة الباحث ان يتعمق اكثر من ذلك في تبيان العوامل التي ادت الى يقظة العرب . كان باستطاعته ان يشدد بنوع خاص على الدور الذي لعبه انتشار المعرفة وتقدم العلوم والتقنية وما احدثته من ثورة عالمية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والعقائدية ومن انعكاسات في الوضع العربي والنفس العربية . ولعل ضيق مجال البحث لم يسمح له بالتعمق في هذه النقطة الاساسية .

ويخلص الدكتور عبد الدائم ، بعد المقدمة ، الى اقرار حقائق ثلاث :

١ ـ ان الامة العربية لن تكون فعلا ، «ما هي ولن تجود بعطائها الانساني .. الا اذا اجتمعت اوصالها المقطعة وائتلفت عظامها المتزاحة ».

٢ ـ ان التربية القومية هي « الجو الضروري لترعرع المعاني الانسانية» في الامة العربية .

٣ ـ ان الحياة القومية الواعية المتاصلة هي التي تمكن الامم في بدء نهضتها من المحافظة على وجودها وتلافي الانسياق مع الكتل المتصارعة لاقسام البلدان الضعيفة ..

هذه الحقائق التي استنتجها الكاتب وعبر عنها بكلام بليغ هي ولا شك جوهرية ، ولكنه اهمل حقيقة اخرى لا تقل عنها اهمية وهي ان الامة العربية لن تتوحد وتحقق ذاتها وتسهم اسهاما واسعا في الاعمال الحضارية الا بعد ان تكون قد التحقت بركب العلوم والتقنية وشرعت تخلق وتبدع في هذا الميدان الذي يميز الحضارة البشرية الطالعة .

ثم يلاحظ الكاتب ان اصطدام القومية العربية بالغرب والشرق معا قد فضح المعسكرين معا . فالمعسكر الغربي ، بعد ان انكر على الشيوعيين اساليبهم واتهمهم بالكذب والمكر وخنق الحريات، ونسب لنفسه شرف احترام الحقيقة والقانون والعقول والنفوس ، تنكر هو ذاته للمبادىء التي كان ينادي بها ، اذا استباح استعمار البلدان المتخلفة واستثمار مرافقها والحياة على دماء شعوبها .

ومن جهة ثانية ، فالمعسكر السوفياتي ، الذي اخذ على المعسكر الغربي تنكره للمبادىء وامعانه في استغلال الشعوب الضعيفة ، لم يستطع بدوره الا ان يقع فيما هو ادهى من ذلك . فالنظام الشيوعي اوغل وما يزال يوغل في اصطناع الحيل واستعمال العنف وتزييف الحرية وجعلها صنما جامدا « يعبد ليذبح على اقدامه الديانون به » .. والشيوعية لم تستطع في بلادها ان تحقق ، مقابل الحريات « الصورية » التي تنسبها الى الدول الراسمالية ، حرية شخصية حية كما وعدت في البداية ، « حرية حضارة بروليتارية لا بطالة فيها ولا استثمار ولا حرب». ويؤكد الكاتب : « ان الانتقال الذي قال به ماركس من الحرية الصورية الى الحرية الفعلية امر لم يتم بعد ولا يرجى ان يتم » .. ذلك لان الحرية تجمدت في المعسكر السوفياتي واصبحت قالبا فارغا ، واصبح الدفاع منصبا على الحرية ـ القالب الخالية من اي مضمون بدلا من ان ينصب على الناس الاحرار ... وهكذا ابتعدت ثورة عام ١٩١٧ عن اهدافها وتردت تردیا لم يعد من الممكن معه الرجوع الى معين الثورة او معاودة التجربة من جديد .

هنا كان يجدر بالباحث ان يذكر اسباب تزييف الحرية وتردي الثورة في المعسكر الشيوعي. اذ لا يكفي ان نلاحظ هذا الشيء الخطير بل يجب ان نعلله وننفذ الى العوامل التي ادت اليه .

وفي عرفنا ان اسباب تحويل الحرية الى صنم وابتعاد ثورة عام ١٩١٧ عن اهدافها تكمن في العقيدة الماركسية ذاتها . فهذه العقيدة

في مجملها تحتوي على نواقص واخطاء وعناصر فساد كان لا بد لها من انتؤدي ، عند التطبيق ، الى الفظائع التي نشهدها اليوم . وسنعود الى توضيح هذه الناحية في نقدنا لمقال السيد ايليا حريق .

ويتكلم الدكتور عبد الدائم عن الصدام الحالي بين القومية العربية والشيوعية ، فيلاحظ ان التبديل الذي وعد به خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، عندما ايد التعايش السلمي والحياد الايجابي وعدم التدخل في شؤون الغير ، واعلن ان هناك اكثر من طريق لبناء الاشتراكية ، ان هذا التبديل المزعوم لم يكن سوى « طعم » لاصطياد الشعوب الضعيفة . ان حوادث العراق الاخيرة برهنت على ان الاتحاد السوفياتي ما يزال متمسكا بالنهج الستاليني ، وفيا له وانه لا يساعد بلدا من البلدان الا املا بتقوية الحزب الشيوعي المحلي فيه وتمكينه من الاستيلاء على الحكم ..

لقد سقط القناع الذي حاول خروشوف ان يستر به حقيقة السياسة السوفياتية . والفضل في ذلك يعود الى الحركة العربية الحرة التي يقودها عبد الناصر والتي رفضت ان تتخلى عن مبدأ الحياد الايجابي وان ترتبط بالعجلة السوفياتية ، مما احرج قادة الكرملين وارغمهم على كشف اوراقهم .. وهكذا « برزت الشيوعية امام العالم من جديد معتدية عنيفة، تلجأ الى الارهاب والحيل والخداع وتبعث على الثورات الدامية وتطوح بالمواطنين الاحرار وتجرب ان ترغم شعبا بكامله على غير ما يعتقد ».

وينتهي الدكتور عبد الدائم الى الاستنتاجين التاليين :

١ ـ لن تنجح سياسة الكذب والارهاب واراقة الدماء التي انتهجتها الشيوعية العالمية . لن تنجح لان الشعوب قد استيقظت وادركت معنى الحرية .

٢ ـ ان القومية العربية هي التي فضحت اللعبة السوفياتية الجديدة فاسدت للبشرية جمعاء خدمة جلى . ويمكن التاكيد ان ما يجري اليوم في العراق هو « تحد جديد » يقوم به الانسان الشيوعي ضد الانسان الحر . والعربي في هذه المعركة هو « الحارس الذي يحول بين الانسانية وبين ان تتردى في هاوية تنكر « اعمق لقيم الانسان وحضارته .. »

من هنا يصح القول ان معركة العرب ضد الاستعمار الغربي والشيوعية لا تعني العرب وحدهم ، بل تعني جميع الشعوب وتشكل جبهة مهمة من جبهات « معركة الانسانية » في سبيل الحفاظ على ما وصل اليه العقل البشري والضمير البشري من قيم وتراثات .

نازك الملائكة و « الايدي القذرة »

مرة اخرى تبرهن الشاعرة نازك الملائكة على انها نقادة فذة ، حادة النظر واسعة الاطلاع والافاق ، تغوص الى اغوار الاثر الادبي وتعمل فيه تمحيصا وتشريحا حتى تستخرج منه جميع ما يحتويه من عناصر صالحة او طالحة وجميع ما يخبئه من خلجات وغايات ومن طاقة خفية وقوة ايحائية . وهي لا تكتفي بالغوص والتشريح بل ترتفع فوق الاثر وتقارن بينه وبين غيره من الاثار القريبة او البعيدة لتلقي اضواء جديدة على ابرز ما في بنيانه وادق ما في ثناياه .

وهذا ما يلمسه القارىء عند مطالعته الدراسة النقدية التي خصتها نازك بمسرحية جان بول سارتر الشهيرة « الايدي القذرة » .

تنتقد نازك في بدء دراستها اسلوب سارتر في تقديم الزمن وتاخيره ، اذ ان مقدمة المسرحية تجري في الحاضر ، ثم تاتي خمسة فصول تنبعث فيها احداث الماضي ، واخيرا تاتي الخاتمة لتعيدنا الى الحاضر ..

تقول الناقدة ان هذا الاسلوب في معالجة الزمن احدث بعض الاضطراب في المسرحية لا بل اضفى عليها ظلا خفيفا من الابتذال الفني .

اما انا فقد قرأت « الايدي القذرة » بالفرنسية وقرأت ترجمتها العربية ثم شهدتها على المسرح الفرنسي ، كما شهدت الفيلم الذي استخرج منها، وفي جميع هذه الحالات لم اشعر بان تقديم الزمن وتاخيره قد احدث فجوة او اضطرابا في سياق التمثيلية . وعلى كل ليس هذا بالمهم . ان اهمية « الايدي القذرة » تتجلى ، كما تلاحظ نازك ، في بنائها المسرحي المتماسك وتكوين الشخصيات وعمق الفكر .

وللدلالة على ذلك ، تقدم لنا الناقدة تحليلا دقيقا لاقطاب المسرحية الثلاثة : هوغو ، هوردر ، جسيكا ، كما تكشف النقاب عن نفسية الابطال الثانويين امثال لويس وسليك وجورج واولغا ، وتخلص الى الكلام عن الاراء السياسية والفلسفية التي بثها سارتر في روايته التمثيلية .

لابد من الاعتراف بان نازك نجحت الى اقصى حد في تحليل ابطال الرواية وتشريحهم والنفاذ الى اعماق ضمائرهم ، مستخرجة مغزى اقوالهم وتصرفاتهم ومغزى كل شاردة وواردة تصدر عنهم .

فكانها تدخل جلدهم وتعيش في وجدانهم وتسلط اشعتها الكشافة على ادق مايجول في ذهنهم ورواسب لاوعيهم ..

ويخرج القارىء من هذا التحليل النافذ المستفيض وكانه قد عاش من جديد مع نازك ماساة ، هوغو وهودرر وجسيكا من الداخل ، عاشها بعطف وتفهم وكثافة واستنفذها الى اخر هنة من هناتها ونفذ الى ابعد ماتعبر عنه الالفاظ التي يتفوه بها هؤلاء الابطال ، والى اعمق ما تفصح عنه حركاتهم وافعالهم ..

ثم يشعر القارىء بانه مدين لنازك ومعجب بها ، لانها قدمت له هذه المتعة النادرة ، متعة النفاذ الى اعماق شخصيات غنية باحاسيسها وابعادها وافكارها وخلجاتها وتحاكها فيما بينها وتجاربها ، غنية بمعاناتها الوجود البشري وما يتضمنه من قوة وضعف ، وتصميم وتخاذل ، وايمان ويأس ، وظلم وثورة على الظلم ، وتيارات نفسية وايديولوجية متصارعة ..

ليس لنا مانبديه بصدد تحليل شخصيات المسرحية سوى اعجابنا ببراعة نازك وقدرتها الخارقة في هذا الميدان .

ولكن عندما تنتقل الى الكلام عن الافكار السياسية والفلسفية التي تشكل محور « الايدي القذرة » ، نراها تقف موقفا غامضا فتكتفي بتبيان تلك الافكار وشرحها دون ان تعلق عليها و تبدي رايها فيها ، رغم خطورتها القصوى . هنا يتساءل القارىء : هل تؤيد الناقدة النظرة الفلسفية التي تنطوي عليها هذه المسرحية ؟ الا يعني صدوفها عن نقد تلك النظرة انها تتبناها بدورها ؟

ان شخصية هودرر تمثل في نظر نازك الملائكة فكرة « الاخلاق للانسان » ، في حين ان شخصية هوغو تمثل فكرة « الاخلاق للاخلاق ». وهذا صحيح .

ولا ريب ان نازك نجحت في ابراز الفارق بين الفكرتين . فقد اوضحت ان هودرر يعتبر الحزب الشيوعي (الذي ينتمي اليه ويلعب دورا رئيسيا فيه) وسيلة لاغاية .. وسيلة لخدمة المجتمع والانسان ، وبالتالي يجب ان يستولي الحزب على الحكم لتحقيق مهمته ، ويجب الا يقف عند اي رادع اخلاقي يحول دون هدفه ، لان الاخلاق هي ايضا ،

كالاحزاب ، وسيلة لخدمة الانسان وتحقيق سعادته . واذا احتاج الحزب الى التضحية بالاخلاق والطهارة والى غمس ايديه في الدم والاقذار للوصول الى الحكم ، فينبغي الا يتردد في ذلك هنيهة .. في حين ان هوغو يفضل ان يبقى الحزب نقيا غير مشوب ولو ادى ذلك الى ضياع « الفرصة الذهبية الوحيدة لامتلاك زمام الحكم » ..

وتوضح الناقدة نظرية هودرر اكثر فاكثر فتقول ان الاخلاق في نظر هذا البطل « لاتمتلك الخير الا بالنسبة لما تحققه من خدمة للانسانية ، وعلى الناس الا يترددوا في التخلص منها حين تصبح عبئا في اعناقهم يثقل موكب المجتمع عن الاندفاع نحو الكمال .. »

وهكذا نصل الى المبدأ المكيافيلي المعروف : « الغاية تبرر جميع الوسائل » . ولكن ما رأي نازك الملائكة فيه ؟ ما رايها في فلسفة هودرر التي تشرحها لنا بدقة وعمق ؟ لاندري بالضبط اذ انها تمتنع عن ابداء اي رأي شخصي ، في حين ان من واجبها كناقدة ان تقول كلمتها في الموضوع ، خاصة وان بلدها العراق يطبق فيه الشيوعيون منذ اشهر نفس الفلسفة التي وضعها سارتر على لسان هودرر .

واكثر من ذلك : ان نازك ، في تحليلها شخصية هودرر ، شددت على صفاته النادرة : قوة منطقه وارادته وتفهمه العميق للناس ورجولته النابضة وصراحته ونبل سلوكه .. انها تصوره لنا بشكل يدلنا على انه اثار اعجابها ويدفعنا بدورنا على الاعجاب به .. ثم تشرح فلسفته باسلوب اخاذ يحرك القارىء ويهيئه لتقبل مبدأ الغاية تبرر جميع الوسائل ..

لا نقول ان نازك تحبذ فلسفة هودرر ، ولكن صدوفها عن « تقييم » هذه الفلسفة يثير بعض التساؤل حول موقفها . ولعل وجودها في العراق عندما كتبت الدراسة التي نحن بصددها هو السبب في امتناعها عن نقد تلك النظرية التي شاءت الظروف ان يطبقها الحزب الشيوعي في بلاد الرافدين حيث ضرب بجميع القيم الاخلاقية عرض الحائط وانغمس في الدم والاقذار « حتى المرفقين » ، لا بل حتى الراس ، واظهر من روح الاجرام والبربرية ما يذهل العقل .. كل ذلك ليستولي على الحكم ، معتقدا ان « الفرصة الذهبية » قد سنحت لاستلام المبادرة والقبض على زمام الدولة . فكان شيوعيي العراق يطبقون اليوم حرفيا تعاليم هودرر التي هي في الحقيقة النهج الذي طبقه البولشفيك ، وبنوع خاص ستالين ، واصبح فيما بعد النهج الشيوعي الكلاسيكي الذي تتمشى عليه جميع الاحزاب الماركسية التابعة لموسكو .

لتسمح لنا نازك اذا بان نناقش هذا النهج بدلا منها وان نبين ماينطوي عليه من ضلال وتشويه .

من الجائز القول ان الاحزاب والانظمة والحكومات والقوانين ليست كلها الا وسائل لتحقيق هدف واحد هو سعادة الانسان . ولكن هذا القول لاينطبق على القيم الاخلاقية خلافا لما يؤكده هودرر وتبرزه الناقدة في دراستها . ذلك ان طبيعة القيم الاخلاقية تختلف جوهريا عن طبيعة الاحزاب والانظمة والحكومات والقوانين وان كانت هناك رابطة بين الطرفين . الاخلاق تشكل عنصرا تكوينيا في الانسان وسعادته ، بينما الاحزاب والانظمة والحكومات والقوانين امور خارجية يستنبطها الانسان ويحورها ويبدلها وفقا لحاجاته وتطوره .

الاخلاق هي العنصر التكويني الذي يميز الانسان عن البهيمة . لا الحياة البيولوجية تميزه ولا الوعي والذكاء . هذه العناصر نجدها ايضا في البهيمة . ولكن الشيء الذي لانجده فيها هو معرفة الخير من الشر والتعمق في هذه المعرفة وتطبيقها في الحياة . ذلك مانسميه الاخلاق .

صحيح ان معرفة الخير من الشر كانت بدائية في العصور البشرية الاولى ، وصحيح انها نمت وازدادت عمقا وصفاء مع الزمن ، ولكن الجوهر لم يتبدل ولن يتبدل . وبمقدار ماتوصل الانسان الى تنمية اخلاقه وتنقيتها ، بقدر ذلك حقق سعادته .

من المحال ان نفصل السعادة عن الاخلاق ، اذ ان السعادة حالة داخلية نفسية اكثر منها خارجية مادية . ليست السعادة الحقيقية في تأمين الرفاهية المادية والحصول على الملذات فحسب ، بل هي قبل كل شيء التوفيق بين معرفة الخير وسلوك الطريق المؤدي اليه ، اي تحقيق الانسجام بين ضمير الانسان ومعرفته .

رب غني يشقى طوال حياته رغم كل مالديه من مال ومتع . ورب فقير يعيش سعيدا رغم كل مايعانيه من حرمان .

نقول ذلك لا للدفاع عن النظام الرأسمالي المهترىء وتكريس استثمار الانسان لاخيه الانسان . فنحن نؤمن بالاشتراكية ونعمل لها ونعتبر ان خيرات الارض والانتاج يجب ان توزع على جميع الناس لينال كل فرد مايحتاجه منها وما يستحقه . ونعتبر ايضا ان سعادة الافراد تبقى اجمالا بعيدة المنال اذا لم يحصلوا على مستوى معقول من العيش .

ولكن الشيء الذي نود ان نشدد عليه هو ان السعادة ملازمة للاخلاق .

ـ التتمة على الصفحة ٦٧ ـ

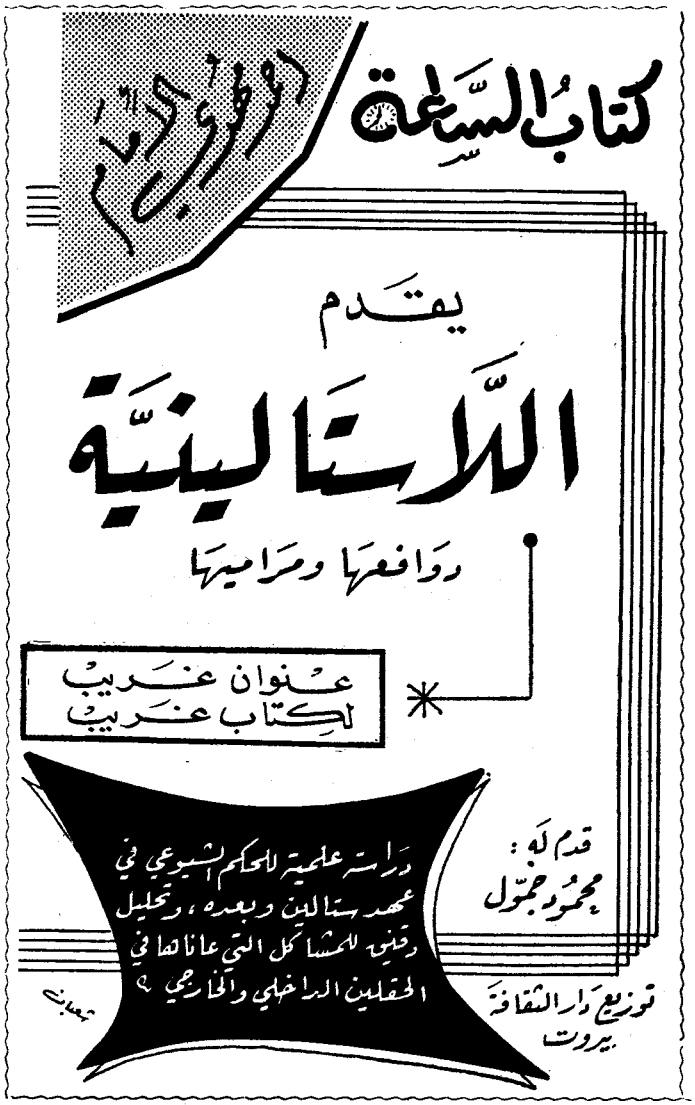

قرأت العدد الماضي من الآداب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢

فاذا تخلصنا من الاخلاق ونفيناها وغمسنا ايدينا في الدم والاقذار حتى المرفقين ، نفينا السعادة في الوقت نفسه .

لن نصل الى الخير عن طريق الشر ، ومن الشطط القول ان القيم الاخلاقية في النظام الرأسمالي والمجتمع البورجوازي قيم مزيفة يجب ان ننسفها من الاساس لكي نتمكن من بناء قيم جديدة صحيحة في المجتمع الاشتراكي او الشيوعي العتيد . فالقيم الاخلاقية كانت قبل النظام الرأسمالي والمجتمع البورجوازي وستبقى بعدهما الى ما لا نهاية له . واذا كان البورجوازيون يشوهون هذه القيم ويصلبونها مرارا كل يوم فهذا لايعني انها فاسدة ، مزيفة ، وان من الواجب نسفها .

ونحن اذ ندعو الى المحافظة على الاخلاق ، لانستهدف قط الحفاظ على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية البالية ولا نطلب من الجماهير ان تكون مائعة خاملة وان تتقبل الظلم والاستثمار .. بالعكس ندعو الى الثورة على الجمود والظلم ، وندرك ان هناك حالات تستلزم اللجوء الى العنف لصد العنف . عندما تستبد اقلية انانية بالاكثرية المحرومة في المجتمع ، وعندما تسعى تلك الاقلية لخنق حريات الاكثرية وطمس امانيها وتحطيم كرامتها والحيلولة دون تقدمها وخروجها من حالة البؤس والذل ، عندئذ يصبح من حق الاكثرية وواجبها ان تثور للدفاع عن نفسها وان تلجأ الى العنف للتخلص من عنف الاقلية وبطشها وظلمها .. ان الثورة العنيفة في حالة كهذه تنسجم مع الاخلاق تمام الانسجام ، لا بل تنبع منها ، بدلا من ان تحطمها وتنفيها .

وعليه ، لايحق لاي حزب ، سواء اكان شيوعيا ام بورجوازيا ، ان يلجأ الى الثورة الدامية للاستيلاء على الحكم الا اذا كان يمثل الكثرة الساحقة من الشعب واذا كانت هذه الكثرة قد سلمته القيادة بملء حريتها واذا كانت الاوضاع لاتسمح بالتخلص من الظلم والبؤس وجور الحاكمين الا عن طريق العنف ، بعد استنفاد جميع الطرق القانونية .. انذاك ، وانذاك فقط ، تكون الثورة اية ثورة ، نابعة من صميم الاخلاق ، ويكون بذل الدم واجبا وشرفا وبطولة ، لا جريمة وخيانة وبربرية ..

المادية الديالكتية ونظرتها الى التاريخ

اخذ السيد ايليا حريق على عاتقه ان يبين فساد الاساس الذي يرتكز عليه المذهب الماركسي، الا وهو الديالكتية المادية ، وان يبرهن ان هذه الديالكتية قد عمرت « فوق طاقتها على الحياة ».

يعترف الكاتب بادىء ذي بدء ان الماركسية ، رغم الجموح النظري الذي يميز مبادئها الفلسفية الاساسية ، استطاعت ان تنظر الى حركة التاريخ بعين نافذة ثاقبة واقعية .. ثم يؤكد ان الاتحاد السوفياتي « هو اليوم الجبهة السياسية الوحيدة التي تتبع في سياستها نظرة تاريخية شاملة تستلهمها وتأخذ بنتائجها » .

ولكن فات الكاتب ان هناك جبهة سياسية اخرى ، لاتوازي الجبهة السوفياتية بقوتها وطاقتها الاكتساحية ، ولكنها تفوقها من حيث تركيز السياسة على نظرة شاملة الى التاريخ ، واعني بها الجبهة الاشتراكية التي يجب ان نميزها عن الحركة الشيوعية .

فالاشتراكية الصحيحة ، التي تاخذ بعين الاعتبار ، واقع كل بلد وحاجاته وامكاناته وتحاول ان تنسجم معه وان تنبعث من داخله ، والتي تدرك انه من الخطأ ان نحاول فرض نظام واحد او مخطط واحد او توجيه « بابوي » واحد على كل البلدان او كل الاحزاب الساعية لبناء المجتمع الاشتراكي ، والتي تؤمن بان النظام الاشتراكي لايجوز تطبيقه ولا يرجى منه خير اذا ما فرض بالقوة من فوق على قاعدة شعبية غير مهيأة له وغير قابلة لهضمه ، بل ينبغي ان ينبع من القاعدة الشعبية ويجذب اكثريتها اليه قبل ان يطبق على يد القيادة الحاكمة ، هذه الاشتراكية تنظر الى التاريخ والى الكون نظرة اسلم واعمق من النظرة الشيوعية .

وينطلق السيد حريق الى تلخيص المبادىء الفلسفية الثلاثة التي يفسر بها ماركس والماركسيون الوجود والمجتمع ، وهي :

١ ـ مبدأ الانتقال المفاجيء من الحكم الى النوع .

٢ ـ مبدأ التناقض الضمني القائم في جميع الموجودات ومظاهر الطبيعة .

٣ ـ مبدأ تناقض التناقض .

ثم ينتقد الكاتب هذه المبادىء انتقادا سريعا ويظهر فسادها ، مستندا الى ما طالعه من الكتب او الدراسات الموجزة المتعلقة بالماركسية .

واول انطباعة تتركها قراءة هذا المقال في ذهننا هي انه يعالج الديالكتية المادية معالجة سريعة لاتخلو من العمق احيانا ، ولكن تشوبها السطحية احيانا اخرى ، وهي ناقصة على كل حال .

كان من الانسب ان يختار السيد حريق نقطة واحدة او مبدأ واحدا من مبادىء الفلسفة الماركسية وان يعالجه في الصفحات الاربع من مجلة « الاداب » التي يحتلها مقاله . اما وقد اختار معالجة الديالكتيه المادية كمذهب فلسفي ونظرة الى التاريخ والمجتمع ، فكان عليه ان يتعمق في تحليلها اكثر مما تعمق وان يتوسع في شرحها واستيعاب مختلف نواحيها اكثر مما توسع ، كي يأتي بحثه بحثا علميا مستوفي الشروط .

ومهما يكن من امر ، نرى انه اغفل نقطتين مهمتين عند نقده ما اسماه المبادىء الثلاثة التي يفسر بها الماركسيون الكون والوجود والمجتمع .

النقطة الاولى تتعلق بالحتمية التي يفترضها تفسير الكون والوجود والمجتمع تفسيرا ماديا . ينطلق التفكير الماركسي من الناموس الفيزيائي ـ الكيميائي الذي يمكننا ايجازه بما يلي : لنأخذ عددا من العناصر المادية كالكاربون والازوت والاكسوجين والهيدروجين مثلا .. اذا ادركنا صفات كل عنصر من هذه العناصر وميزاته وطاقته ، نستطيع ان نعرف مسبقا نتائج اندماجها ببعضها البعض . وبتعبير اخر ، يكفي ان ندرك المعطيات والاسباب لندرك مقدما النتائج . وهذا مايفترض وجود حتمية في عالم المادة .

يأخذ ماركس بهذا المبدأ الفيزيائي ـ الكيميائي ويحاول تطبيقه على المجتمع البشري ذاته ، فيقول ما ملخصه : عندما ندرك ميزات القوى البشرية والاقتصادية والسياسية او الفكرية والعقائدية التي يتكون منها مجتمع ما ، نستطيع ان ندرك مسبقا ما ستؤدي اليه هذه القوى من

نتائج في المستقبل . وهذا مايفترض وجود حتمية في المجتمع والتاريخ .

صحيح ان ماركس يترك لارادة الانسان دورا تلعبه في التاريخ . ولكن هذا الدور يقتصر على استعجال تطور المجتمع وتطور التاريخ المعروف مسبقـــا ..

ان الاكتشافات العلمية والابحاث الفلسفية الحديثة والتجارب الاخيـرة توصلت الى هدم فكرة الحتمية هذه ليس فقط في المجتمع البشري ، بل في عالم المادة نفسه . لقد تبين بصورة لا تقبل الجدل ان الحرية تلعب دورا رئيسيا في تطور المجتمع البشري. فالمجتمـع هـو واقـع حي تفعل فيه عوامل وارادات لاحد لها ولا احصاء ، عوامل داخليـة وخارجية ، نفسية ومادية ، فردية وجماعية ، تنسجم مع بعضها احيانا ، وتتصارع احيانا اخرى ، فتولد دوما عوامل جديدة ومعطيات جديـدة لا يستطيع المرء مهما كان عبقريا ورائيا ان يتوقع ظهورها كلها مقدمـا ولا ان يدرك مقدما كل ماستحدثه من تأثيرات وردات فعل ..

واذن فهناك مدى واسع في تطور التاريخ والمجتمع يعجز العقل عـن استيعابه والتنبؤ بما هو وما سيكون ، مدى تلعب فيه الحرية والظروف والصدف ويبقى سرا جاريا مع التاريخ الى نهاية مطاف البشرية .

ومن جهة ثانية ، اثبتت الاكتشافات العلمية الحديثة ، وخاصـة اكتشافات آنشتاين ، ان الذرة نفسها ، وهي اخر وحدة مادية توصـل اليها التحليل العلمي « للميكروكوسم » ، لا تتركب مع غيرها مـن الذرات بشكل حتمي يخضع الى نواميس مادية نهائية ، بل ان هنـاك عنصرا مجهولا ، يمكن ان نسميه عنصر الغيب او الحرية ، يظل يلعب دورا غامضا في ذلك التركيب .

اما النقطة الثانية التي نود توضيحها فهي تتعلق باخر ماتوصل اليـه منطق ماركس في نظرته الى التاريخ .

بعد ان فسر ماركس التاريخ تفسيرا ديالكتيا ، مشددا على اهميـة العوامل الاقتصادية والوسائل الانتاجية في الانتقال من مرحلة الـى اخرى ، اي من الدور البدائي الى الدور الاستعبادي ثم الدور الاقطاعي ، والدور الرأسمالي فالدور الاشتراكي ، وبعد ان نقض الدين والانظمـة الاقتصادية والسياسية والحقوقية القائمة في عصره واكد ضـرورة تحطيمها والانتقال منها الى النظام الاشتراكي فالشيوعي ، انتهى بـه تفكيره الى الخلاصة التالية التي نوجزها بكلمات :

ان كل ما بنته البشرية حتى اليوم من حضارات وتراثات واديـان ومبادىء اخلاقية لايتضمن اية قيمة تاريخية ، ولا هو بالتاريخ الصحيح . ان تاريخ الانسانية الصحيح لن يبدأ الا عند تحقيق المجتمع الشيوعي الذي فيه تنحل جميع المشاكل وتزول التناقضات وتحقق السعـادة نهائيا .. وبالتالي فكل ماسبق هذا المجتمع المرتقب انما هو كالنوافـل التي يجب ان تطرح جانبا وتزول ، حتى الاجيال البشرية نفسها التـي تعاقبت منذ ظهور الانسان في الكون الى اليوم ، والتي كدحت وشقيت وافنت ذاتها لتقديم الجنس البشري ودفعه الى الامام ، حتى هذه الاجيال قيمة لها اذا نظرنا اليها من زاوية اخر ماتوصل اليه المنطق الماركسي .

وهذا لعمري مايفسر « نيهيلية » الشيوعيين وامعانهم في هدم جميع القيم والمعتقدات والقيم الاخلاقية والتراثات اذا اقتضى الامر ، مـن اجل بناء « الفردوس » الذي تخيله نبيهم الاكبر .

ظـلام في النهـار

يأتي تحليل كتاب ارثر كستلر «ظلام في النهار» بقلم السيد محمود حيدر مؤيدا كل التأييد للمآخذ الاساسية التي اخذها الدكتور عبد الله الدائم والسيد ايليا حريق على الشيوعية ، وللملاحظات التي ابديناها شخصيا بهـذا الصـدد .

وليس لنا ما نبديه في موضوع تحليل هذا الكتاب وتفسيره سـوى الاعتراف بان السيد حيدر وفق في مهمته على اكمل وجه ممكن وقـدم لنا دراسة تحليلية مستفيضة تعطينا فكرة واضحة وعميقة عن روايـة كستلر الرائعة ، فاستحق شكر قراء « الاداب » .

ونرى من المفيد ، في ختام جولتنا النقدية ، ان نستشهد حرفيـا بالمقطع الذي ابرز فيه السيد محمد حيدر الفكرة الاساسية التي تستند اليها رواية كستلر . يقول السيد حيدر :

« ان الناظم الاساسي للرواية هو فكرة الحرية . وما يريده المؤلف على وجه الدقة ، كما نرى ، هو : ان الحرية هي وتظل دائما وسيلـة الانسان الوحيدة للمعرفة والتقدم . واية مكتسبات تتعلق بالحرية لايجوز التخلي عنها بحال من الاحوال ، لقاء افتراضات موهومة تحت شعـار : ازدهار مقبل ، عالم افضل !!.. لان هذا العالم الافضل المفترض ـ حتى لو كانت النية سليمة ـ سيؤول الى الخطأ لانه امتداد لجيل حرم مـن جـو الحريـة .. »

هذا المقطع يصلح ان يكون خاتمة لكل بحث نقدي يتناول الشيوعية وغاياتها ومبادئها والفظائع التي رافقت تطبيقاتها في مختلف بقاع الدنيا .

موريس صقر

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

دانيال روبس	ما هو الكتاب المقدس
جوزف صدقي	لبنان حضارة وجمال
ليلى بعلبكي	نحن بلا اقنعة
ميغو دروبيه	صديقتي الشجرة
كمال الحاج	دفاعا عن اللغة العربية
سليمان الحاج	بين الجدران
طه حسين	من لغو الصيف
محمد الماغوط	حزن في ضوء القمر
مارك الرياشي	صباح الخير
بيار روفائيل	انا خاطئة
كامل المقدم	الصناعة والتجارة
المطران بولس تراعي	كتاب مختصر الشريعة
تشارلز فرنكل	ازمة الانسان الحديث
ميشال كامل الخوري	المنازعات في شئون الاستملاك
ميشال كامل الخوري	قضايا الاستملاك